أثر القرآن الكريم في مؤلفات أبي حيان التوحيدي[1]

أ.م.د. كريم المسعودي الباحث: هاشم خضير عطية

جـــامعـــة القـــادسيـــة/ كلية الآداب

ak1813400@gmail.com

تاريخ الطلب: ٢٧/ ٢٠٢٢/٩
تاريخ القبول: ٢٨/ ٢٠٢٢/١٠

ملخص:

لقد كان التوحيدي كثيرا الاقتباس من آيات القرآن الكريم فهو يضمّن ما يقتبسه في درج الكلام واقتباسه للآيات اما ان يكون كليا او جزئيا واورد ابو حيان اراء العلماء في مسألة في غاية الأهمية وهي مسألة خلق القرآن والتي ظهرت أيام الخليفة المأمون العباسي وتأثر التوحيدي على المستوى الديني بآراء بعض شيوخه أمثال أبي حامد المروروذي وعلي بن عيسى الرماني وغيرهم.

تميّز أبو حيان التوحيدي بأنّ مؤلفاته جاءت ذات مسح دينية رغم ميله الواضح للعلوم العقلية وكان للقران الكريم اثرا واضحا في كتاباته وقد تأثّر التوحيدي بكتاب الله العزيز منذ نعومه اظافره اخبرنا بذلك هو في الجزء الثامن من كتابه البصائر والذخائر من خلال حديثه عن عمر الطفولة، وقد حفظ ابو حيان القران ودافع عنه ودعا الاديب الى حفظه لمعرفة السنة كما دعا التوحيدي إلى التأمّل في معاني القرآن الكريم ومعرفة مراد الله سبحانه وتعالى وقد استقى معانيه وتراكيبه منه أيضا نجد ذلك واضحا في ادعيته ومناجاته في كتابه الإشارات الإلهية وقد درس ابو حيان القراءات القرآنية على أستاذه أبي حامد المروروذي وأخذ التفسير عن كبار علماء المسلمين في ذلك العصر امثال ابي بكر بن مقسم وابي زيد البلخي والرماني وغيرهم وتطرق التوحيدي إلى مسائل في تأويل القران ومعرفة مراد الله سبحانه وتعالى.

Abstract

Al-Tawhidi used to quote a lot from the verses of the Noble Qur'an, as he included what he quoted in the speech and his quotation of verses, either in whole or in part. Some of his sheikhs, such as Abu Hamid Al-Maroodhi, Ali bin Issa Al-Rumani and others Abu Hayyan al-Tawhidi was distinguished by the fact that his writings came with a religious survey, despite his apparent inclination for rational sciences.

Abu Hayyan memorized the Qur'an and defended it and called on the writer to memorize it in order to know the Sunnah. He also called on al-Tawhidi to meditate on the meanings of the Noble Qur'an and to know the will of God Almighty. Divine Signs Abu Hayyan studied the Qur'anic readings under his teacher Abu Hamid Al-Maroodhi and took the interpretation from the great Muslim scholars of that era such as Abu Bakr bin Muqsim, Abi Zaid Al-Balkhi, Al-Ramani and others.

المقدمة:

يعد أبو حيان التوحيدي (٣١٠هـ ـ ٤١٤هـ) من كبار كتّاب النثر في القرن الرابع الهجري، وتميّز بثقافة واسعة في مختلف العلوم والمعارف في عصره، وكان لكتاب الله العزيز الأثر الواضح في مؤلفاته، فكثيراً ما نجده يستدل بالآيات الكريمة ويحتج بها أمام خصومه، وأحياناً يعمد إلى ذكر سبب نزول الآية الكريمة أو لآراء شيوخه في القراءات القرآنية، وقد اهتم أبو حيان بتفسير القرآن الكريم، وأورد تفسيرات لكثير من الآيات الكريمة عن شيوخه، وخاض في مسائل تأويل القرآن، وفصل القول في قضية خلق القرآن؛ لذلك ساهم القرآن الكريم في رفد ثقافة التوحيدي.

مَن يطّلع على مؤلفات أبي حيان، ويتتبع آراءه وأقواله يجد أنّ ثقافته جاءت ذات مسحة دينية، كما أنّ تأثّره بالأسلوب القرآني يبدوا واضحاً في مؤلفاته، لا سيما كتابه (البصائر والذخائر) الذي تضمّن أربعمائة وخمسين آية استشهد بها أبو حيان في مواضع مختلفة، وكذلك كتابه (الإشارات الإلهية) الذي أكثرَ فيه من الأدعية والمناجاة، وقد بدت فيه مفردات القرآن واضحة، فالقرآن الرافد الأول والأشمل للثقافة العربية الإسلامية .

وقد تأثّر أبو حيان بالقرآن الكريم منذ نعومة أظافره، ونستطيع أن نتعرف على هذا التأثّر من خلال حديث التوحيدي عن عهد الطفولة؛ إذ يقول: "إنّ عمي كان قاعداً في بعض العشيات في قطيعة الربيع فاجتزتُ له متوجّهاً إلى مجلس أبي الحسن ابن القطان الفقيه الشافعي، فقال له جلساؤه: إنّ ابن أخيك يا أبا العباس مجتهدٌ في طلب العلم، يغدو ويروح، ولقد سمعنا تلاوته للقرآن فاستجدناها، ولقد سمعنا منطقه فاستأنسنا به ..."[1]. وحديثه هذا يدل على أنّه حفظ القرآن في سنٍّ مبكر، وتأثّر به وأجاد تلاوته، وممّا يدل على حفظه للقرآن الكريم واهتمامه به قوله: "يجب على الكاتب أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى لينتزع من آياته وأن يعرف كثيراً من السنة والأخبار والسير حافظاً لكثير من الرسائل والكتب ...".[2]

ودافع أبو حيان عن كتاب الله ـ وكان شاباً حديث السن ـ حين سمع أبا سعيد البسطامي الذي يوصف بأنّه شديد التهور عظيم العجرفة "وقد قال له قائل: أيها الأستاذ ـ وكذا كان يُخاطب ـ إنّ فلاناً يقول: متى عرض كلام أستاذكم أبي سعيد على كتاب الله عز وجل خالفه ولم يوافقه، فقال جهلاً: كلام الله عز وجل ينبغي أن يعرض على كلامي! ومضى على ذلك، فلم أجد نكراً من أحدٍ حضر من أصحابه ولا من غيرهم، وكنتُ حينئذٍ وحيداً غريباً حديث السنّ فوقدتني الحمية لله (عز وجل) ولرسوله عند جهله، وكان اعتماده على الهذيان"[3]. وفي هذا النّص ما يدل على عدم صحّة ما ذهب إليه بعض المؤرخين من اتهام التوحيدي بالزندقة والكفر، أمثال الذهبي وغيره .

وكذلك دافع أبو حيان عن كتاب الله العزيز حين بلغه أنّ بعض الدهرية من الرؤساء وأصحاب السيف قالوا مرّةً لقوم: مصونكم خيرٌ من قرآنكم[4]، فيرد عليهم أبو حيان مستشهداً بآيةٍ من الله القرآن الكريم، إذ يقول: "وهذا جهلٌ بالله العظيم، وجرأةٌ على حلمه الكريم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾(فاطر: ٤٥)".[5]

إذن، فالتوحيدي حفظ القرآن الكريم وتأثّر به ودافع عنه ودعا إلى ضرورة حفظه من قبل الأديب لمعرفة السنة، كما مرّ بنا، ونراه يصف كتاب الله العزيز في مقدمة كتابه (البصائر والذخائر) بقوله: "الذي حارت العقول الناصعة في رصفه، وكلّت الألسن البارعة عن وصفه، لأنّه المُطْمِع

ظاهره في نفسه، الممتنع باطنه بنفسه، ... ظاهره أنيق، وباطنه عميق، ظاهره حُكم، وباطنه علم".[6]

ونجد أبا حيان يدعو إلى التأمّل في معاني القرآن الكريم ومعرفة مراد الله سبحانه[7]، وهو في أدعيته ومناجاته يستوحي أغلب المعاني والتراكيب من كتاب الله العزيز، وقد اهتم أبو حيان بالقراءات القرآنية، وله فيها عناية واضحة[8]، وقد أخذها عن أستاذه أبي حامد المروروذي، ومن ذلك ما رواه عنه من سورة [ق:١٩] قوله تعالى: ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بِالْحَقِّ﴾ يقول التوحيدي: "ويقال: سكرة الحقّ بالموت، هكذا قرأتُه ... وكان أبو حامد المروروذي يقول: لعلّه قرأه هكذا لِما عمره من معالجة الموت".[9]

ويروي لنا أبو حيان خبراً عن قتادة أنّ يونس بن حَيْوَة أوصاهم "بالقرآن فإنّه نور الليل المُظلم، وهُدَى النّهار، فاعملوا به على ما كان من جَهدٍ وفاقة..."

وكان التفسير في القرن الرّابع في أوجّه، وظهر كثيرٌ من المفسرين، واتجه بعضهم إلى التفسير بالمأثور، في حين اعتمد البعض الآخر على العقل أكثر من اعتماده على النّقل، وظهر ما يعرف بالتفسير بالرّأي على أيدي المعتزلة، وهناك اتجاه ثالث في التفسير حاول أن يوفّق بين ما ورد في القرآن وبين العقل، في حين اتجه التفسير عند الصوفية للتأويل والتخريج كما هو مذهب الجنيد وسفيان الثوري، وكانت الآراء متشعبة والمذاهب مختلفة[10]. ويظهر أنّ أبا حيان ـ بحكم عمله ـ قد اطّلع على هذه الاتجاهات، وقد اهتم بتفسير القرآن الكريم وبالكتب التي تناولته، وذكر منها كتاب (الأنوار) لأبي بكر بن مقسم، وفيه يقول: "ولابن مقسم في القرآن كتاب يسمّيه (الأنوار) يُقدم على كتبٍ كثيرة"[11]. إلّا أنّ هذا الكتاب لم يكن عند أبي حيان بمنزلة كتاب (نظم القرآن) للبلخي الذي قال عنه: "أمّا أنا فلم أرَ في القرآن كتاباً أبعد مرمًى، ولا أشرف معانٍ من كتابٍ لأبي زيد البلخي".[12]

وسمع أبو حيان ابن سمعون الصوفي يعلّق على آية من سورة طه (٣٩) وهي قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ،﴾فيقول: "لو أنّ أرقّ النّاس لساناً، وألطفهم بياناً أراد أن يتوسط حقيقة هذا القول لم يستطع وعاد حسيراً، ونكَصَ بهيراً ...".[13]

ويذكر لنا التوحيدي كتاباً في التفسير لأبي القاسم الكعبي يقول عنه: "يزيد حجمه على كتاب أبي زيد"[14]، وروى سؤالاً لابن عباد عن قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [سورة الرحمن: ٣٥]، ..."[15]. وهو يورد الآيات القرآنية إمّا للاستشهاد كقوله: "وقال بعض السلف: عليكم بالصبر فإنّ الله تعالى قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ[16]"...﴾، وإمّا في قضية حجاجية كسؤال الدامغاني للصاحب عن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾وتعليق ابن بابويه القمّي عليها[17]، ويأتي بها أحياناً لربط حادثة تاريخية أو موقف معين، ومن ذلك قصة رواها عن جاريةٍ جاءت لمنصور بن مهران بمَرَقةٍ فهراقتْها عليه، فلمّا أحسّ بحرّها نظر إليها، فقالت: يا معلّمَ الخَيْر اذكر قولَ الله. قال وما هو؟ قالت: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ قال: كَظَمْتُ. قالت: واذكر ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال: قد عفوْتُ. قالت: واذكُرْ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال: اذهبي فأنتِ حُرّة".[18]

ويوردها للترغيب والترهيب، ومن ذلك ذَكرَ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ [الحج:٢] فلمّا عُرف المعنى حُمل على أنّ قوله (تراهم سكارى) من الهول وليسوا بسكارى من الشرب[19]. وأمّا قوله: ﴿لَا يَمُوْتُ فِيْهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي إنّه لا يموت موت الراحة، ولا يحيا حياة المنفعة.[20]

ومن الآيات التي رواها أبو حيان في التفسير عن ابن عباد قوله لابن أبي هشام: "لا تقُلْ حرِجتْ نفسُه، إنّما الحَرَج للصدر، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ[21]"... ﴾. وفسّر قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ [يونس: ٥٤] أي أظهروا، أي بدا ذلك في أسرّتِهم[22]، وقوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ [آب عمران: ١٢٥] معلّمين، ومنهم مَن أراد بها مرسَلين[23]. وفسّر التوحيدي قول الله (عز وجل): ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ ...﴾ أي إنّه مَن تعلمون[24]، وأبو حيان في روايته لكلام الله (عز وجل) يعتمد على مرجعيات عدّة ويورد الآيات القرآنية إمّا عرضاً في ثنايا الفقرات، وإمّا في فقرات مستقلة، وأحياناً يرجع في هذه الفقرات إلى أحد العلماء لتوضيح الأمور الغامضة فيها، ومن ذلك ما أورده عن جعفر بن محمّد (عليهما السلام) عن معنى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] لئن شكرتم هدايتي لأزيدنّكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي لأزيدنّكم قربي.[25]

ومن العلماء الشيعة الذين ذكرهم التوحيدي، وسمع منهم علي بن عيسى الرمّاني، وفيه يقول: "وسمعته يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وجهان ..."[26]، وكما روى عن أئمة المسلمين (عليهم السلام)، وكذلك الرمّاني والقمّي ذكر أيضاً علماء السنّة بل إنّ أكثر الآيات التي أوردها رواها عنهم، ومنهم أبو هريرة الذي اورد عنه تفسيراً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤] عذاب القبر.[27]

وذكر أبو حيان تفسيراً عن ابن عباس إذ يقول: "قال ابن عباس: تبكي على الرجل البقاع التي يصلي فيها، ويصعد عمله منها، فذلك قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: ١٢٩]"[28].

وروى التوحيدي أسئلةً وجهّت إلى البخاري، ومن ذلك قوله: "وسُئل يوماً عن قول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [سورة الشورى: ٢٤] كيف نظمُه وتمامُه في المعنى واللفظ؟..."[29]. وذكر تفسيراً عن الحسن البصري للآية (١١٠) من سورة الإسراء[30]، وكذلك عن الجنيد الصوفي الذي فسّر الآية (٤٥) من سورة العنكبوت[31]، وعن أبي كعب الأنصاري عن ابن الطحان الضرير البصري عن جهم روى تفسيراً لقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [سورة الفرقان ٧٠]، فيوم القيامة يبدل الله سيئات المؤمنين حسنات، فيندمون على ما قصروا فيه من تناول اللذات وقضاء الأوطار بالشهوات .[32]

وعن الأخفش روى تفسيراً فقال: "قال الأخفش ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] يزعمون أنّها على الجماعات نحو: هذا عنقٌ من النّاس، يعنون الكثير"[33]. أمّا السيرافي فلم نجد له كتاباً في التفسير إلّا أنّ أبا حيان كان يروي عنه، ومنه قوله: "سألتُ السيرافي عن قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] ..."[34]. وكذلك قوله تعالى: "سمعتُ السيرافي يقول:﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ.[35]"... ﴾

وعن يعقوب ابن السكيت فسّر أبو حيان الآية (١١) من سورة الأنفال[36]، وذكر أكثر من تفسير عن سفيان بن عينيه، ومنه تفسيره لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١][37]، وروى التوحيدي رأياً لأبي النّفيس الرياضي في الآية الكريمة ذاتها، وكان مختلفاً مع

سفيان الذي قال فيها: "إذا قلّ المطر قل الغوص وعمَّتِ الحيتان ودوابّ البحر"[38]. فيما ذهب أبو النفيس إلى أنّ المراد منه: في النّفس والقلب، أي بمعنى في السر والعلانية.[39]

وروى التوحيدي مسائل ـ في معنى بعض الآيات ــ أوصلها الوليدي للبخاري عن جماعة من أهل نيسابور[40]، وذكر شرحاً لآيةٍ من سورة البقرة احتج بها الحسن بن شاذان "وكان بيت القرآن والرواية".[41]

وروى التوحيدي تفسيراً عن الواسطي لآيتين في معنى العارف والعامل[42]، وذكر تفسيراً عن أبي الفرج البغدادي الصوفي لسورة طه الآية (٤٢)، وقد تناوله بالنّقد، وتحدث عن أخطائه .[43]

ونراه يورد تفسيراً عن ميمون فيقول: "قال ميمون بن مهران في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] تعزية للمظلوم ووعيدٌ للظالم"[44]. وعن يحيى بن كثير ذكر تفسير قول الله (عز وجل) ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] فقال السماع[45]، وعن قتادة فسّر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] أي سؤالك إياي ما ليس لك به علم[46]، وأورد تفسيراً عن المبرّد لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي عن المسألة[47]. وروى عن الفراء تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي يبقى ربّك.[48]

وقد اطّلع التوحيدي على كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، ونقل قوله في أنّ اسم الشيء هو الشيء، أي إنّ وجه الله عز وجل هو الله، واسم السلام هو السلام[49]، وقد ذكر أبو حيان عنه تفسيراً لأكثر من آية منها: "قال أبو عبيدة في قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ٣٧] أي لن تقطع الأرض، والخرق: القطع".[50]

وعن المفجع روى أبو حيان تفسيراً لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] والإغماض كما يراه المفجع هو الاقتصاد على [ما] دون الحق.[51]

ويعد ثعلب من أهم العلماء الذين أخذ عنهم التوحيدي تفسير القرآن وروى عنهم أخباراً ـ تنتمي إلى حقل الأثر الديني ـ في كتاباته ومن ذلك أورد عنه تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ [النّحل: ١١٦] "ردّه على الألسنة والكذب ردٌّ على ما قال".[52]

وبجانب القراءات والتفسير روى أبو حيان في أسباب نزول الآيات القرآنية، ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، نزلت هذه الآية في الثُّقلاء، ذكر ذلك التوحيدي عن الأحنف.[53]

وخاض التوحيدي في مسائل تأويل القرآن ومعرفة مراد الله سبحانه وتعالى إذ يقول: "وما وجه قوله عزّ وجل ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وإذا ضممته إلى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] فإنّك إن حملت أحدَ القولين على الآخر لم تبرأ من تعسّفٍ أو تكلّفٍ، فقفنا على المعنى الموقوف به فيهما، وعرّفنا مُرادَ الله (عز وجل) منّا بهما، فالخَطْب قد أعْضلَ من أجل هاتين الآيتين حتى صار الباحثون عن الحق فيهما إلى الاختلاف الشديد، والشتات العتيد"[54]. وهنا يشير بوضوح إلى اختلاف العلماء وتشتت مذاهبهم.

وذكر أبو حيان عن الوليدي مسائل في التأويل، ومضى يكرر على التوالي قوله: "وما تأويل قوله"[55]، ثمّ يذكر الآية الكريمة، ثمّ يذكر فيها الأقوال والأوجه.[56]

ونقل أبو حيان عن ابن المراغي تأويلاً لآيةٍ ثمّ تساءل عن "صحّة قول من تأول قول الله عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]. إنّ المراد به علي بن أبي طالب (عليه السلام)، والقائل بهذا مقدم في النّحو على طبقته في العلم، وهو ابن المراغي" .[57]

وأورد التوحيدي تفسيراً لبعض الآيات الكريمة بشكلٍ مباشر من دون ذكر المصدر، ومنها "قوله تعالى: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] أي من أين لكِ هذا"[58]، و"قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي كيف يكون".[59]

ويعمد أبو حيان، أحياناً، إلى الاقتباس من القرآن الكريم، ويقوم بتضمين ما يقتبسه في أدعيته ومناجاته[60] التي تتشابه في حرارة النبرة، وصفاء النّية، والتسليم إلى الله تعالى.[61]

وكثيراً ما يقتبس جزءاً من الآية ويقوم بتضمينها في درج الكلام[62]، على شاكلة قوله: "وكما وجَدنا السيّئات يحبطنَ الحسنات، كذلك وَجَدْنا الحسنات يُذْهبْنَ السيئات"[63]. وهنا يقتبس أبو حيان جزءاً من الآية (١١٤) من سورة هود، وجاء اقتباسه رائعاً .

وأحياناً، يقتبس الآية الكريمة بأكملها كقوله: "وهذه الآخرة وهي باقية، والله تعالى يقول: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى[64]"﴾، وقد تأتي اقتباساته سيئة، وهذا قليل في كتاباته، ومن ذلك قوله: "وأنتم قومٌ تلقفون ما يأفِكُون[65]، والله أعلم بما توعون"[66]. وأحياناً تأتي اقتباساته على التوالي[67]، وهو في أغلب اقتباساته يجيد ويتميز ويختار عباراته بدقة وذكاء .

وهناك مسألة عقدية مهمة في تاريخ الأمة الإسلامية، وهي مسألة خلق القرآن، وقد أُثيرت أيام حكم الخليفة العباسي (المأمون)، ذكرها التوحيدي في مؤلفاته وعرض لما ذهب إليه فقهاء المذاهب الإسلامية، وفصل القول في خلافهم، وهل أنّ القرآن مخلوقٌ أو غير مخلوق؟

ويروي لنا أبو حيان ما يعتقد به فقهاء المذهب الإمامي، ومنهم عبد الله بن موسى بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) عندما سأله المأمون عن القرآن، وما يقول فيه، فأجاب عبد الله: "نحن نرى الكلام في القرآن بدعة، اشترك فيها السائل والمجيب، فتعاطى السائل ما ليس له، وتكلّف المجيب ما ليس عليه، ولا خالق إلّا الله عز وجل، وما دون الله تعالى فهو مخلوق، والقرآن كلام الله تعالى ...".[68]

ومن فقهاء هذا المذهب ممّن ذكر لهم التوحيدي حديثاً عن هذه المسألة الصاحب بن عباد؛ إذ يروي عنه حواراً دار بينه وبي أبي واقد الكرابيسي، وكان الصاحب يسأل والكرابيسي يجيب، ومن ذلك قول الصاحب له: "فما تقول في القرآن"[69]، فيجيب أبو واقد ولكن ليس كما يريد الصاحب ليكرر الأخير سؤاله فيقول: "صدقت، ولكن أمخلوقٌ هو أم غير مخلوق؟".[70]

ويظهر أنّ هذه المسألة أخذت اهتماماً كبيراً في ذلك الوقت، الأمر الذي فتح الباب أمام التكهنات، ممّا جعل فقهاء هذا المذهب يقولون إنّ الكلام في القرآن بدعة وفتنة يجب الابتعاد عنها، والأقرب إلى هذا الرأي ما ذهب إليه فقهاء المعتزلة، فقد قالوا: إنّ القرآن مخلوقٌ ومحدث،

وإنّ الله القادر على كل شيء له القدرة على خلق النّبي الأكرم محمّد (ﷺ) قبل أن يُنزل عليه القرآن، وكذلك استندوا إلى أدلةٍ من القرآن الكريم، فهو آياتٌ دلّت على أحداث وقعت قبل نزوله "فغزوة بدر حدثت من قبل أن يتنزل في شأنها قرآن يُتلى على طول الزمان، والمرأة التي جادلت الرسول (ﷺ) في زوجها نزل من بعد مجادلتها قرآن" .[71]

ويروي لنا أبو حيان خبراً عن الكعبي عن جعفر بن محمّد المعتزلي أنّه قال: "سألتُ أبا الهذيل عمّن لم يقل من العامة القرآن مخلوق، أيكفر؟ قال: لا، قلتُ: فإن قال: السماء ليست مخلوقة، أيكفر؟ قال: نعم، قلتُ: وما الفرق؟ قال: لأنّ الأول مختلَفٌ فيه والثاني مجمَعٌ عليه".[72]

وأورد التوحيدي ما ذهب إليه أحمد بن حنبل، وذلك في حديثه عن ابنه عبد الله، وكان أبو حيان قد سمع خبراً عن أستاذه المروروذي فرواه، إذ يقول: "سمعتُ أبا حامد يقول: قرأ عبد الله بن أحمد بن حَنْبل في الصلاة: اقْرَأْ باسْمِ ربّكَ الذي خُلِقَ، فقيل له: أنتَ وأبوك على طرفَيّ نقيضٍ، زعم أبوك أنّ القرآن ليس بمخلوقٍ، وأنت تزعم أنّ الربَّ مخلوق".[73]

وينتهي عهد المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) الذي دعا لفكرة خلق القرآن وحدوثه بقوّة السلطان، ويخلفه المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ)، فيسير على سيرته، وكذلك الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ) سار على منهجهما، فلمّا مات الواثق آلت السلطة إلى المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ)، وكان موالياً لفقهاء المذهب الحنبلي.[74]

ويبدو أنّ الخلاف كان محتدماً بين المعتزلة والحنابلة حول هذه المسألة، فانعكس ذلك على السلطة وأصبح الخليفة يوعز لوزرائه بأن يدعو الناس إلى الفكرة التي تدعمها هذه الفرقة أو تلك.[75]

ومن طريقة عرض التوحيدي لآراء الفقهاء، وعلى الرغم من أنّه لم ينتصر لمذهبٍ معين إلّا أنّ ابتعاده عن أهل الحديث كما يسمّون أنفسهم، وميله إلى ما ذهب إليه المعتزلة والإمامية يبدو واضحاً .

الخاتمة:

- تأثّر أبو حيان بالقرآن الكريم منذ بداية مسيرته العلمية، نفهم ذلك من خلال ما رواه عن عهد الطفولة في الجزء الثامن من كتابه (البصائر والذخائر).
- كان مدافعاً عن كتاب الله (عز وجل) حافظاً له، وكذلك كان التوحيدي يدعو إلى ضرورة حفظه من قبل الأديب لمعرفة السنة.
- كان أبو حيان يستوحي أغلب معانيه وتراكيبه من القرآن الكريم، ويبرز ذلك واضحاً في أدعيته ومناجاته.
- اطّلع التوحيدي على آراء سابقيه من العلماء في تفسير القرآن، وروى عنهم، وأعجب بمؤلفاتهم، ومن ذلك كتاب (نظم القرآن) للبلخي، و(الأنوار) لابن مقسم.
- تأثّر أبو حيان على المستوى الديني بآراء بعض شيوخه، أمثال أبي حامد المروروذي وعلي بن عيسى الرماني وغيرهم.
- لقد اقتبس أبو حيان كثيراً من الآيات الكريمة وضمّنها في درج الكلام، وكان الاقتباس إمّا كليّاً وإمّا جزئياً واقتباساته في أغلبها كانت رائعة. أمّا السيئة فكانت قليلة جداً.
- تحدث عن مسألة عقدية غاية في الأهمية آنذاك، وهي قضية خلق القرآن التي حدثت أيام حكم المأمون العباسي، وقد أورد آراء العلماء فيها.

هوامش البحث:

[1]) البصائر والذخائر: ٨ / ١٢٤ .

[2]) نقلاً عن مطالع البدور في منازل السرور، ط١: ٢/ ١١٧ .

[3]) البصائر والذخائر: ١ / ٢٠٦ .

[4]) ينظر: البصائر والذخائر: ٤ /١٥١ .

[5]) البصائر والذخائر: ٤ / ١٥١ ..

[6]) البصائر والذخائر: ١ / ٥ .

[7]) ينظر: البصائر والذخائر: ٢ / ٢٢٩ .

[8]) ينظر: مفهوم الأخلاق عند أبي حيان: ٣١ .

[9]) البصائر والذخائر: ٣ / ١٨ ، وينظر: مفهوم الأدب في مؤلفات أبي حيان: ٢٠٣ .

[10]) ينظر: ظهر الإسلام، د. أحمد أمين، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت: ٢ / ٣٧ ـ ٤٥ .

[11]) البصائر والذخائر: ٨ / ٦٦ .

[12]) البصائر والذخائر: ٨ / ٦٦ .

[13]) الصداقة والصديق: ٢١٢ .

[14]) البصائر والذخائر: ٨ / ٦٦ .

[15]) أخلاق الوزيرين: ٢٥٣ .

[16]) الإمتاع والمؤانسة: ٢ / ١٢١ .

[17]) ينظر: أخلاق الوزيرين: ٢٥٤ .

[18]) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ١٢٩ .

[19]) ينظر: البصائر والذخائر: ٩ / ١٢٧ ، وينظر: الإمتاع: ٣/ ١٦٧ ـ ١٦٨ .

[20]) ينظر: البصائر والذخائر: ٩ / ١٢٧ .

[21]) أخلاق الوزيرين: ٤٦١ .

[22]) ينظر: البصائر والذخائر: ٨ / ١١٥ .

[23]) ينظر: البصائر والذخائر: ٨ / ١٧٥ .

[24]) ينظر: البصائر والذخائر: ٩ / ١٢٧ .

[25]) ينظر: البصائر والذخائر: ٦ / ١٩٤ .

[26]) البصائر والذخائر: ٦ / ٢١٧ .

[27]) ينظر: البصائر والذخائر: ٦ / ٩٧ .

[28]) البصائر والذخائر: ٦ / ١٢٠ .

[29]) أخلاق الوزيرين: ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

[30]) ينظر: البصائر والذخائر: ٧ / ١٥ .

[31]) ينظر: البصائر والذخائر: ٦ / ١٩٤ .

[32]) ينظر: الإمتاع والمؤانسة: ٣ / ١٩٦ .

[33]) البصائر والذخائر: ٦ / ١٨٠ .

[34]) البصائر والذخائر: ٣ / ١٤٩ .

[35]) البصائر والذخائر: ٦ / ٢١٦ .

[36]) ينظر: البصائر والذخائر: ١ / ٢٤٣ .

[37]) ينظر: البصائر والذخائر: ١ / ٢٤٤ .

[38]) البصائر والذخائر: ١ / ٢٤٤ .

[39]) ينظر: البصائر والذخائر: ١ / ٢٤٤ .

[40]) ينظر: أخلاق الوزيرين: ٢٦٩ ـ ٢٧٢ .

[41]) ينظر: أخلاق الوزيرين: ٢٧٩ .

[42]) ينظر: البصائر والذخائر: ٢ / ٢٠٨ .

[43]) ينظر: البصائر والذخائر: ٢ / ٢٣١ .

[44]) البصائر: ٤ / ٦٠ .

[45]) ينظر: البصائر: ٧ / ١٤٨ .

[46]) ينظر: البصائر: ٨ / ٣٥ .

[47]) ينظر: البصائر: ٨ / ١١٥ .

[48]) ينظر: البصائر: ٦ / ١٤١ .

[49]) ينظر: البصائر: ٦ / ١٤١.

[50]) ينظر: البصائر: ٩ / ١٤٢ .

[51]) ينظر: البصائر: ٩ / ١٨٥

[52]) البصائر: ٩ / ٢٢٣ .

[53]) ينظر: البصائر والذخائر: ٢ / ١٣٦ .

[54]) ينظر: البصائر: ٢/ ٢٢٩ .

[55]) أخلاق الوزيرين: ٢٧٢ ــ ٢٧٣ .

[56]) ينظر: أخلاق الوزيرين: ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

[57]) البصائر: ٢ / ٢٣٠ .

[58]) البصائر: ٦ / ١٢٧ .

[59]) البصائر: ٦ / ١٢٧ .

[60]) ينظر: الإشارات الإلهية: ٩٠ ، ٩٦ ، ١١٢، ١٣٥، ١٤١ .

[61]) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي، د. فائر طه عمر: ١٧٢ .

[62]) أخلاق الوزيرين: ٦٧ ، ٨١، ٨٣، ٩٨، ، وقد اقتبس أبو حيان من الآية (٤٢) وليست الآية (٤٤) من سورة الرعد، كما ذكر المحقق محمد بن تاويت: ١٠٣، ٢٥٤، ٢٧٩، ٣١١، ٣١٢، اقتبس من الآية (١٤٢) وليست الآية (١٤١). ينظر: ٣٥٧ ، الآية (٥١) من سورة غافر، وقد ذكرها المحقق (٥١) من سورة المؤمن: ٥٠٧ .

[63]) أخلاق الوزيرين: ٢٧ .

[64]) أخلاق الوزيرين: ٨١ .

[65]) اقتبس من الآية (١١٦) سورة الأعراف، وكان اقتباساً سيئاً. ينظر: أخلاق الوزيرين: ٥٧ .

[66]) اقتبس من الآية (٢٣) سورة الانشقاق، وكان اقتباساً سيئاً أيضاً . ينظر: أخلاق الوزيرين: ٥٧ .

[67]) ينظر: أخلاق الوزيرين: ٢٣٩ ـ ٢٤٠، ٤٤٩ ــ ٤٥١، ٥٠٨ .

[68]) البصائر والذخائر: ٧ / ١٢٠ ـ ١٢١ .

[69]) أخلاق الوزيرين: ١٢٩ .

[70]) أخلاق الوزيرين: ١٢٩ .

[71]) خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة، فخر الدين الرازي، تح: أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت: ١١.

[72]) البصائر والذخائر: ٤ / ٢١٥ ـ ٢١٦ .

[73]) البصائر: ٦ / ٥٨ .

[74]) ينظر: بداية المعرفة، الشيخ حسن مكي العاملي، دار الزهراء، قم ، إيران: ٥١ .

[75]) بداية المعرفة: ٥١ .